

العين للخليل بن احمد

بسم
الأستاذ ابراهيم اليبيري

وإلى جانب البصرة كانت الكوفة ، غير أن البصرة ظلت أسبق وعنها كانت تأخذ الكوفة إلى أن قامت الدولة العباسية فأخذ خلفاؤها يوثرون علماءها على علماء البصرة ويتخذون منهم معلمين لأبنائهم . وأزكى هذا الإيثار الروح العلمية بين البلدين فكان له أثر أما أثر في إنعاش الحياة العلمية وظهور آراء لم يكن يقدر لها الظهور لولا هذه المنافسة .

في ظل هذه الحياة العلمية المنعشة المتأثرة بحضارات مختلفة نشأ الخليل بن أحمد في البصرة ، وكان مولده في العام المم مائة من الهجرة في خلافة الخليفة الأموي العادل عمر بن عبد العزيز (٩٩ هـ - ١٠١ هـ) . على ذلك إجماع المؤرخين . هذا إذا أغفلنا رواية بهامش كتاب تهذيب التهذيب لابن حجر عبارتها : وجد بخط الذهبي أنه ولد سنة ١٠٥ هـ .

ثم امتدت به الحياة ليشهد نهاية الدولة الأموية وكان عندها قد جاوز الثلاثين بقليل ليستقبل الدولة العباسية ليعيش في ظلها عمراً طويلاً .

ولا نعلم على التحقيق أين كان مولده ، وإن كان بعضهم يقول : إنه ولد بمدينة عمان - بضم العين وفتح الميم المخففة - على شاطئ الخليج الفارسي .

في خلافة الخليفة الثاني عمر بن الخطاب وفي سنة اثنتي عشرة من الهجرة أخذ المسلمون في تمصير البصرة وأخذ العرب تبعاً يفدون إليها جاعلين منها مقامهم ، ونزل اليمنيون طرفاً والحجازيون طرفاً وانحازت البطون والأفخاذ إلى أصولها تتميز بمنازلها .

وكان لهؤلاء العرب أسواق أدبية أقاموها في البصرة تحكى أسواقهم في الجاهلية ، أعرفها المربد الذي كان على ثلاثة أميال من البصرة ، والذي بلغت شهرته مبلغ عكاظ ، فكانت تعقد فيه حلقات الخطباء وندوات الأدباء .

وعاشت البصرة صدر الإسلام مقر العلماء والحفاظ والقراء ، وحين أفضت الدولة إلى بني أمية وانتقلت العاصمة إلى دمشق لم تفقد البصرة مكانتها العلمية والأدبية ، لا ينبغ شاعر ولا يظهر أديب ولا يبرز عالم إلا قصد البصرة يجد فيها من يستمع له ويعي عنه ويأخذ منه . وجذبت تلك المكانة غير العرب إليها من العراق وفارس وغيرهما فدخل على الفكر العربي جديد انضاف إليه ، وهكذا عاشت البصرة في العصر الأموي العاصمة العلمية للدولة على حين كانت دمشق العاصمة السياسية ، وعاشت المدينة بينهما للغناء والمغنين .

وغلبة البصرى عليه واشتهاره بهذا اللقب دون غيره تكاد تفيدنا أن إقامته بعمان - إن صح أنه ولد بها - لم تكن كثيرة ، لهذا نسيت عمان وذكرت البصرة ، هذا إلى ما كان للبصرة من صفة قامت النسبة إليها لقباً يميز مدرسة عن مدرسة ، أعنى مدرسة البصرة ومدرسة الكوفة .

والخليل بن أحمد يكنى أبا عبد الرحمن ، ويذكر النسابون أنهم لا يعرفون بين النبي ووالد الخليل من اسمه أحمد سواه .

وأحمد هذا هو ابن عمرو بن تميم . ويذهب بعض النسابين إلى أنه ابن عمر بن تميم ، كما يذهب آخرون إلى أنه أحمد بن عبد الرحمن .

وإلى فرهود بن مالك بن فهم بن عبد الله بن مالك ابن نصر بن الأزد بن الغوث ينتهى نسب الخليل .

ويقال إن نسبه ينتهى إلى فرهود بن شيبان بن مالك ابن فهم بن غنم بن دوس بن عدنان بن عبد الله ابن كعب بن الحارث بن كعب بن عبد الله بن مالك بن نصر بن الأزد ، ازد عمان .

وأظن أن القول بولادة الخليل بعمان مردها إلى أن فرهود جده من أزد عمان .

وعلى أنى عمرو بن العلاء تتلمذ الخليل ، وكان أبو عمرو علماً فى القراءة والعربية ، وكان من تلامذته مع الخليل يونس بن حبيب وأبو محمد على بن المبارك الزبىدى .

وكان إلى جانب أبى عمرو بن العلاء شيوخ آخرون من المحدثين روى عنهم الخليل منهم : أيوب السخيتانى البصرى ، وعاصم الأحول بن النضر البصرى ، وعمان ابن حاضر الأزدى ، والعوام بن حوشب ، وغالب ابن خطاف القطان البصرى .

وكان الخليل يرى رأى الأباضية أتباع عبدالله بن أباض - وهم فرقة من الخوارج يقولون بتكفير مخالفهم

من أهل القبلة - غير أنه ما لبث أن رجع عن ذلك حين جالس أيوب السخيتانى . وإذا عرفنا أن السخيتانى كانت وفاته فيما بين سنتى ١٢٥ هـ ، ١٣١ هـ استطعنا أن نحكم بأن الخليل رأى رأى الأباضية مبكراً وعدل عنه مبكراً . والذين يترجمون للخليل يجمعون على أنه كان من الزاهدين المنقطعين إلى الله غير راغب فى متاع الدنيا ، وكان أحد أربعة من أهل العربية أصحاب سنة - كما يقولون - على حين كان غيرهم من معاصريهم من أهل العربية أصحاب أهواء .

ومما يروى له من زهده وتعففه أنه أقام فى البصرة فى خص لا يقدر على فلسين وتلامذته يكسبون بعلمه الأموال .

وقد أرسل إليه سليمان بن على والى البصرة لتأديب أولاده نظير راتب يجريه عليه فأخرج خبزاً يابساً وقال للرسول : ما دام هذا عندى فلا حاجة لى فيه - وهو يعنى سليمان بن على - وكتب إليه شعراً يقول فيه :

أبلغ سليمان أنى عنه فى سعة

وفى غنى غير أنى لست ذا مال

شحاً بنفسى إنى لا أرى أحدا

يموت هزلاً ولا يبقى على حال

والفقر فى النفس لا فى المال نعرفه

ومثل ذاك الغنى فى النفس لا المال

فالرزق عن قدر لا العجز ينقصه

ولا يزيدك فيه حول محال

وكان النضر بن شميل يقول : أكلت الدنيا بعلم الخليل وهو فى خص لا يشعر به .

كما كان يقول : ما كنا ندرى أى الرجلين مقدم فى العبادة : ابن عون والخليل بن أحمد ؟

وكان سفيان الثورى يقول : من أحب أن ينظر

إلى رجل خلق من الذهب والمسلك فليُنظر إلى الخليل بن أحمد . وهو يعنى نقاء معدنه وطيب نفسه .

وفي الحق لقد كان الخليل من الراغبين عن الدنيا
الراغبين إلى الله يحج سنة بعد سنة وكان يقول : إن لم
تكن هذه الطائفة - يعنى العلماء - أولياء الله تعالى فليس
لله ولى . وكان يقول : إني لأغلق على بابي فما يجاوزه همى .
وكان كثيراً ما ينشد بيت الأخطل :

وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

ذخيراً يكون كصالح الأعمال

وإذا انضاف إلى هذا ما يروى له من قوله : أربع
تعرف بهن الآخرة : الصفح قبل الاستقالة - طلب
الصفح - وتقديم حسن الظن قبل التهمة ، والبذل قبل
المسألة ، ومخرج العذر قبل العتب ، علمت كيف كان
يأخذ الخليل نفسه وكيف كان يسوسها وما كان يريد
للناس أن يكونوا عليه زهداً منه في الحياة وتهويناً لها .
وحسبك قوله :

وقبلك داوى الطبيب المريض

فعاش المريض ومات الطبيب

وكن مستعداً لداء الفناء

فإن الذى هو آت قريب

والخليل بعد هذا كان ذكياً فطناً ، ولقد قيل :
إنه لم يكن بعد الصحابة أذكى من الخليل ولا أجمع
لعلم العرب منه .

ويحكون أن الخليل وابن المقفع اجتماعاً ليلة بطولها
يتذاكران ثم افترقا ، فسئل الخليل عن ابن المقفع
فقال : رأيت رجلاً علمه أكثر من عقله . وقيل لابن
المقفع : كيف رأيت الخليل ؟ فقال : رأيت رجلاً
عقله أكثر من علمه .

ويزيدك إيماناً بحكم ابن المقفع على الخليل ما يرويه
الأصمعى عن الخليل عن تقسيمه للعلوم هذا التقسيم
الذى سأسوقه إليك والذى يدل على مبلغ عقل هذا
الرجل وتحكمه فيما بين يديه وأنه لم يقف عند الوعى
والحفظ بل عدا هذا وذاك إلى الابداع والخلق . يروى

الأصمعى فيقول قال الخليل : العلوم أربعة ، فعلم له
أصل وفرع ، وعلم له أصل ولا فرع له ، وعلم له
فرع ولا أصل له ، وعلم لا أصل له ولا فرع . فأما
الذى له أصل وفرع فالحساب ، ليس بين أحد من
المخلوقين فيه خلاف ، وأما الذى له أصل ولا فرع له
فالنجوم ليس لها حقيقة يبلغ تأثيرها في العالم - يعنى
الأحكام والقضايا على الحقيقة . وأما الذى له فرع ولا
أصل له فالطب وأهله منه على التجارب إلى يوم القيامة ،
والعلم الذى لا أصل له ولا فرع فالجدل - يعنى الجدل
بالباطل .

ومما ينطق بفطنته ما روي له من أنه كان عند رجل
دواء لظلمة العين ينتفع به الناس ، فمات هذا الرجل
وافترق الناس إلى ذاك الدواء . فقال الخليل : أله نسخة
معروفة ؟ قالوا : لا . قال : فهل له آنية كان يعملها
فيها ؟ قالوا : نعم . قال : جيئوني بها . فجاءوه بها
فجعل يشم الإناء ويخرج نوعاً نوعاً حتى أخرج الأخلاط
جميعاً وأخذ يتعرف أقدارها إلى أن اهتدى إلى ذلك .
ثم وجدت النسخة في كتب الرجل . فوجدت الأخلاط
كما اهتدى إليها الخليل .

والمؤرخون مجمعون على أنه كان إماماً في العربية
كما كان الغاية في استخراج مسائل النحو وتصحيح
القياس فيه ، كما كان أول من استنبط علم العروض .

وما من شك في أن معرفته بالإيقاع والنظم أعانته
على استنباط هذا العلم العروضى الذى لم يأخذه عن
أستاذ ولا احتذاه على مثال سابق ، ينضم إلى هذا ذكاء
خارق . ولقد قالوا عنه في استنباطه لهذا العلم "عروضى
واختراعه إياه من أن ذلك تأتى له حين كان يمر
بالصفارين فسمع وقع مطرقة على طست وكان عندها
يردد بيتاً من الشعر فاذا هو يواهم بين ما يسمع وبين
ما يردد وإذا الفكرة تواتيه في أن يقطع الشعر تقطيعاً
ينتهى به إلى وضع البحور ، وما تحتها من تفصيلات .

وهذا ان صح يدلك على ما رزق الرجل من بديهة متوثبة وفطنة متأهبة .

والذى لا نشك فيه أن الرجل كان على قدرة في تلوين النظم والتحكم فيه أكسبته إياها معرفته النغم والإيقاع ، فهم يروون له قصيدة على « فعلن فعلن » ثلاثة متحركات وساكن التي يقول فيها :

سئلوا فأبوا فلقد بخلوا فلبئس لعمرك ما فعلوا أبكيت على طلل طربا فشجاك وأحزنك الطلل كما يروون له قصيدة على فعلن ساكنة العين يقول فيها :

هذا عمرو يستغفى من زيد عند الفضل القاضى فانہوا عمرا إني أخشى صول الليث العادى الماضى ليس المرء الحامى أنفا مثل المرء الضيم الراضى

فهذه القدرة هي التي يسرت للرجل أن على على الشعر تلك الأوزان التي اخترعها . ولقد كان هذا مشغولا شغل به فترة ما نظن أنها كانت قصيرة ، فثقل هذا العلم الأصيل الدقيق الوافى لا يكون نتاج ساعة . وما نظن تلك الحادثة التي وقعت له في سوق الصفارين - إن صححت - إلا بدء الفكرة .

ومما يدلك على شغل الخليل بهذا العلم العروضى كما قلنا وأنه كان لهجا به لا يفتأ يشغل بالتقطيع حتى غلبه التقطيع على أمره وبات يردده عن غير وعى : ما يروونه عنه من أن ابناً له دخل عليه وهو يقطع بيتاً من الشعر وما نظن الخليل كان عندها مالكا لأمره ، إذ لو كان كذلك ما خرج ابنه عنه وهو يصرخ ويقول : إن أبى قد جن . ويدخل الناس عليه فيعلمون حاله ويجدون على غير ما قال ابنه فيقول مخاطباً ابنه :

لو كنت تعلم ما أقول عذرتنى

أو كنت أعلم ما تقول عذلتكا

لكن جهلت مقالتي فعذلتنى

وعلمت أنك جاهل فعذرتكا

وهكذا تلخص هذه الحادثة نشأة هذا العلم في رأس الخليل وشغله به شغلا ألماه عن نفسه وكاد يثير حوله الشكوك . وما نظن هذا العلم استوى له إلا بعد جهد طويل كما قلنا .

وعلى يدى الخليل خرج سيبويه وعنه أخذ ، وكل ما يحكيه سيبويه في كتابه فعن الخليل ، وكذلك كل ما جاء في الكتاب غير معزو لقائل فعن الخليل ، وحين يقول سيبويه في كتابه : فسألته ، فهو يعنى الخليل . وهكذا ترى أن كتاب سيبويه يكاد يكون أكثره لأستاذه الخليل .

وشارك سيبويه في الأخذ عن الخليل جملة منهم النضر بن شميل وأبو فيد مؤرج السدوسى وعلى بن نصر الجهضمى .

وكما حدث الخليل عن شيوخ من المحدثين مروا بك حدث عنه شيوخ من المحدثين . فقد روى عنه : حماد ابن زيد ، وأيوب بن المتوكل ، والأصمعى ، وهارون ابن موسى ، ووهب بن جرير بن حازم ، وداود بن المحبر ، وأخوه هذاب بن المحبر .

والخلاف في موت الخليل يربى على الخلاف في مولده فمن المؤرخين من يقول إنه مات سنة خمس وسبعين ومائة على هذا الرأى الكثرة . ومنهم من يقول : إنه مات سنة سبعين ومائة . ومنهم من يقول إنه مات سنة نيف وستين ومائة . والنيف كل ما زاد على العقد إلى أن يبلغ العقد الثانى ، وهذا قريب مما سبقه . ومنهم من يقول : إنه مات في سنة ستين ومائة .

وبعد هذه الأقوال المتقاربة ينقل ابن خلكان في كتابه الوفيات قولاً بعيداً عن هذه الأقوال كلها فيقول : وقال ابن الجوزى في كتابه الذى سماه شذور العقود إنه توفى سنة ثلاثين ومائة .

غير أن ابن خلكان لا يترك هذا القول يمر دون تعقيب منه عليه فيقول : « وهذا غلط قطعاً » .

والمؤرخون الذين اختلفوا اختلافاً يسيراً في مولد الخليل ثم اختلفوا اختلافاً كثيراً في وفاته لم يختلفوا في مكان موته فكلهم مجمعون على أنه مات بالبصرة .

والخليل لم يمت عن علة وإنما مات عن صدمة بسارية في المسجد ، فالمؤرخون يروون أنه دخل يوماً المسجد وهو مشغول الفكر ، فشغل عن أن يبصر ما بين يديه ، فاذا سارية تصدمه ، وإذا هو يقع ميتاً .

والمؤرخون الذين يروون هذا لم يسكتوا عن أن يدخلوا في رأس الخليل ليتبينوا ما شغله فيقولون : كان يقول : أريد أن أقرب نوعاً من الحساب تمضي به الجارية إلى البيع فلا يمكنه ظلمها ، وإنه دخل المسجد وهو يعمل فكره في ذلك فصدمته السارية وهو غافل عنها بفكره ، فانقلب على ظهره فكانت سبب موته .

كما يقولون : بل كان يقطع بحراً من العروض . وإني إذ أشك في الأولى أقيم منها دليلاً على غوص الرجل وراء كل عويص . وإذا أرد الثانية أجد معي دليلاً وهو أن الرجل كان قد ذل له علم العروض ولأن فلم يعد البيت من الشعر يشغل عقله بتقطيعه هذا الشغل الصارف .

ومات الخليل وما نظنه دون كل ما علم ، وحسبك على هذا دليلاً : أولها هذا الذي سقناه على لسان سيبويه في كتابه . وثاني الدليلين ما رواه أبو بكر ابن الصيرفي ، فلقد قال : قيل لسيبويه : هل رأيت مع الخليل كتباً يملئ عليك منها ؟ قال : لم أجد معه كتباً إلا عشرين رطلاً ، فيها بخط دقيق ما سمعته من لغات العرب ، وما سمعت من النحو فأملاه من قلبه .

فلقد دون الخليل شيئاً واحتفظ بشيء آخر جعل وعاءه قلبه يملئه على تلاميذه ، وكان منه هذا الذي يتصل بالنحو والذي أخذه عنه تلميذه سيبويه .

وإليك ما وقع لنا مما دونه الخليل من كتب :

١ - كتاب الإيقاع ، ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٢ - كتاب تصريف الفعل . ومنه قطعة بمكتبة بودليانا .

٣ - كتاب التفاحة ، في النحو . وقد صورت البعثة المصرية لتصوير مخطوطات اليمن .

٤ - كتاب جملة آلات العرب ، ومنه نسخة بمكتبة أيا صوفيا .

٥ - كتاب شرح صرف الخليل . ومنه قطعة بمكتبة برلين .

٦ - كتاب الشواهد . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٧ - كتاب العروض . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

٨ - كتاب فائق العين . ذكره ابن النديم .

٩ - كتاب في العوامل . ذكره ابن خلكان .

١٠ - كتاب في معنى الحروف . ومنه نسخة بمكتبة ليدن وأخرى بمكتبة برلين .

١١ - كتاب النغم . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

١٢ - كتاب النقط والشكل . ذكره ابن النديم وابن خلكان .

١٣ - وبعد هذا يأتي كتابه الكبير الخالد الذي يعد أهم مؤلفاته ، وهو :

كتاب العين ، الذي هو أول معجم عربي . كتاب العين :

ومن قبل كتاب العين كانت محاولات حول جمع الكلمات التي تتصل بغرض ما حسيا كان أو معنوياً ، فالجمع عنى أولاً بتدوين كل ما يتصل بالسيف مثلاً وبالزروع والنبات والمطر إلى ذلك من الموضوعات الحسية ثم بالقوة والخور والشباب والهرم وغير ذلك من الموضوعات المعنوية .

لقد سبق هذا التدوين الخاص ، وكان ما وصلنا منه قبل الخليل قليل مثل كتاب الحشرات لأبي خيرة

يد . فهذه آخر حروف المعجم والسلام على أمير المؤمنين .

فهذه الكلمات بمساقها هذا تشير حروفها الأولى إلى حروف الهجاء وترتيبها الذى ارتضاه العرب المشاركة ولا زلنا نحن عليه .

كان هذان النسقان بين يدي الخليل أعنى النسق الأبجدى ثم النسق الآخر الذى تصور صورتين صورة مشرقية وصورة مغربية (حبشية) وكان بوسع الخليل أن يرتب معجمه على واحد من هذين النسقين ولكننا رأيناه يأبى هذا النسق وذلك ويرتب معجمه على نسق جديد خضع فيه لمخارج الحروف .

والمتصلون بعلم اللغات يحدثوننا أن اللغة السنسكريتية فيها هذا المنحى الذى ينظر إلى مخارج الحروف .

ولقد كانت للعرب صلوات بالهند ، وكانت البصرة كما حدثك محط رحال الكثيرين من هنا ومن هناك . وقد يكون الخليل لقن شيئاً من هذا عن السنسكريتية فأخضع له لغته العربية ، كما قد يكون هذا من بدع الخليل ، ولقد كان الرجل رجل صوت فلم لا تملى عليه فطنته الصوتية هذا المنحى اللغوى كما أملت عليه المنحى العروضى فأبدع هنا وهناك .

ورتب الخليل الحروف العربية على مخارجها من الخلق على النظام الآتى كما جاء فى مقدمته لكتاب العين :

ع . ح . هـ . خ . غ . ق . ك . ج . ش . ض .
ص . س . ز . ط . ت . د . ظ . ث . ر . ل . ن .
ف . ب . م . و . أ . ي .

وقد ساقها ابن منظور فى مقدمته لكتابه اللسان وهو يصف كتاب العين على النحو الآتى :

ع . ح . هـ . خ . غ . ق . ك . ج . ش . ض .
ص . س . ز . ط . د . ت . ظ . ث . ر . ل .
ن . ف . ب . م . ي . و . أ .

الأعرابى ، ثم إن هذا التدوين الخاص لم ينقطع بظهور التدوين العام الذى بدأ به الخليل فلقد كان منه الكثير مما عاصر الخليل ومما جاء بعده .

ولكن كان الخليل السباق إلى تدوين اللغة وترتيب ألفاظها على مخارج حروف الهجاء .

وكانت بين يدي الخليل الحروف العربية فى صورتين صورة سابقة وهى الأبجدية أعنى : أبجد هوز حطى كلمن سغفص قرشت ثخذ ضظغ ، تلك الكلمات التى تنتظم حروف الهجاء مرتبة على هذا السياق الذى تصوره الكلمات على ترتيبها هذا الذى جاء عليه اللغة القينيقية ثم اليونانية والذى هو هو فى اللغات السامية ، ما عدا الحروف التى انفردت بها العربية .

وإلى جانب تلك الصورة كانت صورة أخرى تنتظم حروف الهجاء العربية تضم الحروف المتشابهة بعضها إلى بعض كما هى الحال فى الحبشية وإن كانت تختلف شيئاً عن النسق الحبشى الذى لا تزال صورته يحتفظ بها الترتيب المغربى وهو :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز ط ظ ك ل م ن ص
ض ع غ ف ق س ش هـ وى

على حين هو عند العرب المشاركة :

أ ب ت ث ج ح خ د ذ ر ز س ش ص ض
ط ظ ع غ ف ق ك ل م ن هـ ح ولاى .

وما من شك فى أن هذا النسق الثانى كان موجوداً إلى جانب النسق الأول من قبل أيام الخليل وحسبك ما أثير يوماً فى حضرة الخليفة المروانى عبد الملك بن مروان (٢٦هـ - ٨٦هـ) حين قال لجلسائه : أياكم يأتينى بحروف المعجم فى بدنه وله على ما يتمناه ؟ فقام إليه سويد بن غفلة فقال : أنا لها يا أمير المؤمنين . فقال : ما عندك ؟ فقال : أنف . بطن . ترقوة . ثغر . جمجمة . حلق . خد . دماغ . ذكر . رقبة . زند . ساق . شفة . صدر . ضلع . طحال . هامة . وجه .

ولبعض الأدباء ممن لم نظم في ترتيب حروف كتاب العين ، وهو أبو الفرج سلمة بن عبدالله بن دالان المعافى الجزيرى :

يا سائلي عن حروف العين دونكها
في رتبة ضمها وزن واحصاء
العين والحاء ثم الهاء والحاء
والغين والقاف ثم الكاف أكفاء
والجيم والشين ثم الضاد يتبعها
صاد وسين وزال بعدها طاء
والدال والتاء ثم الطاء متصل
بالطاء ذال وثاء بعدها راء
واللام والنون ثم الفاء والياء
والميم والواو والمهموز والياء

غير أنه يلاحظ أن ثمة خلافاً في الترتيب بين ما سبق منظوماً وبين ما سبق غير منظوم في الحروف الأخيرة وهي التي يضمها عجز البيت الأخير .

وعلى حين يعد الخليل العين أقصى الحروف مخرجاً يذكر سيبويه أن الهمزة أقصى الحروف مخرجاً غير أنه يروى عن ابن كيسان (٢٩٩ هـ) أنه سمع من يذكر عن الخليل أنه قال : لم أبدأ بالهمزة لأنها يلحقها النقص والتغير والحذف ولا بالألف لأنها لا تكون في ابتداء كلمة ولا في اسم ولا فعل إلا زائدة أو مبدلة ولا بالهاء لأنها مهموسة خفية لا صوت لها فنزلت إلى الحيز الثاني وفيه العين والحاء فوجدت العين أنصع الحرفين فابتدأت به ليكون أحسن في التأليف . وليس العلم بتقدم شيء على شيء لأنه كله مما يحتاج إلى معرفته فبأى بدأت كان حسناً وأولاه بالتقديم أكثرها تصرفاً .

وقد بسط الخليل في كتابه العين الكلام في هذه الحروف ومخارجها فعدها تسعة وعشرين حرفاً جعل منها خمسة وعشرين حرفاً صحاحاً لها أحياء ومدارج كما جعل منها أربعة هوائية :

(أ) أما الصحاح فهي على وفق ما رتبها :

- ١ - العين ثم الحاء ثم الهاء من حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض .
- ٢ - الخاء والغين من حيز واحد ، وهذه الأحرف الخمسة يلقبها بالحروف الحلقية .
- ٣ - والقاف والكاف لهويتان ، لأن مبدأهما من اللهاة ، والكاف أرفع .
- ٤ - الجيم والشين والضاد ، في حيز واحد ، وهي حروف شجرية لأن مبدأها من شجر النعم ، وهو مفرجه .
- ٥ - الصاد والسين والزاي ، في حيز واحد ، وهي حروف أسلية لأن مبدأها من أسلة اللسان ، وهي مستدق طرفه .
- ٦ - الطاء والدال والتاء ، في حيز واحد ، وهي حروف نطعية لأنها تخرج من نطق الغار الأعلى .
- ٧ - الظاء والذال والتاء ، في حيز واحد ، وبعضها أرفع من بعض ، وهي حروف لثوية .
- ٨ - الراء واللام والنون ، في حيز واحد ، وهي حروف ذلقية لأن مبدأها من ذلق اللسان وهو تحديد طرفه .
- ٩ - الفاء والياء والميم ، في حيز واحد ، وهي حروف شفوية لأن مبدأها من الشفة .

(ب) أما الحروف الهوائية فهي :

- ١ - الياء والواو والألف والهمزة ، وليس لها حيز تنسب إليه إلا الهواء ، غير أنه جعل الواو والألف والياء قسماً ، والهمزة وحدها قسماً .
- وأنت ترى أن ثمة فروقاً بين هذا النسق والنسق الأول لا سيما في حروف العلة فعلى حين قدرتها أولاً : (و - ا - ي -) إذا هو يرتها هنا (ي - و - ا -) ثم يرتها مرة أخرى في مقدمته (و - ي - ا -)

١ -) ويسوقها المعافى فى بيته الأخير على ترتيب مخالف حيث يقول :

واللام والنون ثم الفاء والباء

والميم والواو والمهموز والياء

وإذا عدنا إلى سيبويه ، وهو تلميذ الخليل وجدناه يرتب الحروف على النحو الآتى :

الهزرة - الألف - الهاء - العين - الحاء -
الغين - الخاء - القاف - الكاف - الميم - الشين -
الياء - الضاد - اللام - الراء - النون - الطاء -
الدال - التاء - الصاد - الزاى - السين - الظاء -
الذال - التاء - الفاء - الياء - الميم - الواو .

من هنا نرى أن هذا النظام الذى أرادته الخليل وتأثر به سيبويه لم يكن يضبطه ضابط آلى كما هى الحال اليوم بعد أن أصبحت فى أيدينا آلات لتسجيل مخارج الحروف على وجه دقيق استطعنا بها ترتيب الحروف ترتيباً حديثاً يخالف رأى الخليل فى شىء ويوافقه فى شىء آخر .

ولقد سعى الخليل كتابه باسم أول حرف اعتمده وهو العين ولقد جاء بعده من هذا جذوه منهم تلميذ الخليل النضر بن شميل (٢٠٤ هـ) يذكر له حاجى خليفة فى كتابه كشف الظنون كتاباً اسمه « الجيم » ولا شك فى أنه تأثر فيه بمنهج أستاذه ان صح ما رواه حاجى خليفة فالذى نعرفه أن النضر له كتاب اسمه المدخل إلى كتاب العين . وثمة رجل آخر كان معاصراً لابن شميل وهو أبو عمرو الشيبانى اسحاق بن مرار (٢٠٦ هـ) يعزى إليه كتاب فى اللغة اسمه الجيم أيضاً وكان يظن خطأ أنه معزو إلى الحرف الأول منه وإذا الكتاب ليس كذلك وإنما هو مبدوء بالهمزة وأن تسميته بهذا الاسم لعله أخرى رآها مؤلفه فن معانى الجيم فى اللغة الديناج ولاستحسان المؤلف لكتابه سماه بالجيم . ومن بعد النضر جاء الهروى أبو عمرو شمر بن حمدويه (٢٢٥ هـ) فلقد كان له كتاب اسمه الجيم أيضاً يقول

ابن الأنبارى عنه فى كتابه « نزهة الألبا فى طبقات الأدبا » : « وألف كتاباً كبيراً على حروف المعجم وابتدأه بحرف الجيم » .

ويذكر حاجى خليفة كتابين آخرين أحدهما كتاب العين ويعرف به فيقول : « فى الحروف » . ولا يزيد على ذلك شيئاً ، وثانى الكتابين هو كتاب الميم للبنى أحمد يعرف به حاجى خليفة وأكبر الظن أن الكتابين من هذا المنحى .

وإذا كان الخليل أول واضع للكلم العربى فى صورة معجمية فكان عليه بعد أن اختار الترتيب أن يستقصى الكلمات . وكان اعتماده على ما ذكر الصرفيون من قبله من حصر لأبنية الكلمة وجعلها إما ثنائية أو ثلاثية أو رباعية أو خماسية .

وعلى هذا وجد الخليل أن مبلغ عدد أبنية كلام العرب المستعمل والمهمل على مراتبها الأربع من الثنائى والثلاثى والرابعى والخامسى من غير تكرار اثنا عشر ألف ألف وثلاثمائة ألف وخمسمائة آلاف وأربعمائة واثنى عشر (١٢,٣٠٥,٤٩٢) .

الثنائى : سبعمائة وست وخمسون (٧٥٦) .

والثلاثى : تسعة عشر ألفاً وسبعمائة وست وخمسون (١٩,٦٥٦) .

والرابعى : خمسمائة ألف وإحدى وتسعون ألفاً وأربعمائة (٥٩١,٤٠٠) .

والخامسى : أحد عشر ألف ألف وسبعمائة وثمانية وثلاثون ألفاً وسبعمائة (١١,٧٣٨,٦٠٠) .

وهذا الإحصاء اعتمد فيه الخليل على تنقل الحرف فى بنيتها من الكلمة ، فالخرف فى الكلمة الثنائية تنتج عن تنقله صورتان يكون أولاً ويكون ثانياً ، والخرف فى الكلمة الثلاثية تنتج عن تنقله صور ثلاث يكون أولاً وثانياً وثالثاً ، والخرف فى الكلمة الرباعية تنتج عن تنقله صور أربع ، وفى الكلمة الخماسية خمس صور .

وهذا الاستقصاء تم الاستصفاء اقتضى الخليل جهداً كبيراً لا شك .

غير أنك لو نظرت إلى أساس هذا العمل تجده لا يبعد كثيراً عن الأساس الذي وضعه الخليل لدوائره العروضية .

ولعل ما صرح به ابن دريد في مقدمته لكتابه الجماهرة كان هو ما فعله الخليل ولم يصرح به حيث يقول :

إذا أردت أن تؤلف بناء ثنائياً أو ثلاثياً أو رباعياً أو خماسياً فخذ من كل جنس من أجناس الحروف المتباعدة ثم أدره دائرة فوق ثلاثة أحرف حوالها ثم فكها من عند كل حرف يمنة ويسرة حتى تفك الأحرف الثلاثة فيخرج من الثلاثي ستة أبنية ثلاثية ، وهذه هي صورتها : ج ○ د

فالذي ابتكر الدائرة العروضية هو الخليل ، وبعيد على الخليل ألا يستخدم هذا الأساس الدائري في اللغة كما استخدمه في العروض وما نظن ابن دريد إلا صور ما لم يصوره الخليل .

وهذه الصور التي ابتدعها الخليل ليحصر بها الكلمات جعل كل تقليب منها على الحرف الأول مخرجاً ليتيسر له الحصر وليأمن التكرار .

ولقد سمي كل صورة فصلاً كما سمي ما ينتج عن الصورة مادة . فالفصل في باب الثنائي يشتمل على مادتين وفي الثلاثي على ست مواد وهكذا .

وأخذ الخليل يشير مع كل فصل في الأبنية الثنائية ثم الثلاثية إلى المستعمل والمهمل حتى إذا ما جاوز الثلاثي إلى الرباعي والخماسي اكتفى بإيراد المستعمل ولم ينص على المهمل لكثرة .

ولقد استهل الخليل كتابه بحرف العين كما نعلم مفتتحاً إياه بباب الثنائي الصحيح ، ويسميه أيضاً

المضاعف ، إذ جمع فيه الثلاثي المضعف مثل : عب ، وظاهر أن سبب تسميته هذا بالثنائي هو لوروده على حرفين . وقد أخذ بهذا بعد الخليل ابن دريد في الجماهرة والقالى في البارع .

وكان الترتيب الطبيعي أن يمضى الخليل فيذكر العين مع ما يليها في المخرج وهو الخاء ثم مع الهاء ، ثم مع الخاء وهكذا ، غير أنه حين لم يجد لهذه الفصول في اللغة شواهد وهذا إلى أن السبب هو تعذر النطق بها صرح بذلك في أول الباب .

وينتهي الخليل إلى العين مع القاف فيصورهما صورتين الأولى « عق » والثانية مقلوبها : قع . ثم هو إذا ما وصل إلى القاف لا يذكر هذه الصورة الثانية « قع » لورودها هنا . وكان هذا شأنه في جميع صور الكتاب .

ويتنوع الخليل العين مع سائر الحروف إلى أن يبلغ الميم التي هي آخر الحروف الصحيحة فلا يعرض لصور العين مع حروف العلة أو الهمزة . والذي يفعله هنا مع العين مثلاً يفعله مع جميع الحروف ، لأنه جمع هذه الكلمات في باب سماه اللفيف وضعه بعد أبواب الثلاثي .

وحين يفرغ الخليل من باب اللفيف يأخذ في ذكر الرباعي والخماسي يسوقهما مختلطتين ولا يفرق بينهما وهذا يخالف ما ساقه في المقدمة .

والكتاب يرويه الليث بن المظفر بن نصر بن سيار عن الخليل ، ويرويه عن الليث راو آخر مجهول هو أبو معاذ عبدالله بن عائذ .

وإليك مادة من مواد كتاب العين ، من الثنائي المضاعف وهي عق ، تكشف عن منهج الخليل الذي بسطناه .

عق :

يقول الخليل :

العرب تقول : عتق الرجل عن ابنه ويعتق عقاً ،
إذا حلق عقيقته وذبح عنه شاة - وتسمى الشاة التي
تذبح لذلك عقيقة - قال الليث : توفر أعضاؤها
فتطبخ بماء وملح فتطعم المساكين - وفي الحديث :
كل امرئ مرتين بعقيقته . وفي الحديث : إن الرسول
صلى الله عليه وسلم عتق عن الحسن والحسين فأعطى
بزنة شعورهما ورقاً .

والعقة : العقيقة . وتجمع عققاً . والعقيقة : الشعر
الذى يولد به . وتسمى الشاة التي تذبح لذلك عقيقة .
يقع اسم الشعر على الطعام ، كما وقع اسم الجزور التي
تنقع على العقيقة . وقال زهير في العقيقة :
أذلك أم أقب البطن - جأب
عليه من عقيقته عفاء

وقال امرؤ القيس :

يا هند لا تنكحى بوهة عليه عقيقته أحسبا
ويقال : أعقت الحامل : إذا نبتت العقيقة على
ولدها في بطنها ، فهي معتق وعقوق ، وجاعة العقوق
عقق .

قال رؤبة :

قد عتق الأجدع بعد رق بقارح أو زولة معتق
وقال :

وسوس يدعو مخلصاً رب الفلق

سراً وقد أون تأوين العقق

وقال أيضاً :

كالهوري انجاب عن ليل البرق

طير عنها النسر حولي العقق

وجاعة العقة : العقق . قال عدلى بن زيد العبادى في

العقة ، أى العقيقة :

صيت التعشير رزام الضحى

ناسل عقته مثل المسد

ونوى العقوق : نوى هش لين رخو المضغة تعلفه
الناقة العقوق لطافاً لها فلذلك أضيف إليها . وتأكله
العجوز . وهى من كلام أهل البصرة لا تعرفه الاعراب
في بواديهما .

وعقيقة البرق : ما يبقى في السحاب من شعاعه .

قال : وجمعه العقائى ، قال عمرو بن كلثوم :

بسم من قنا الخطى لدن وبيض كالعقائى يخلينا
وأنعق البرق ، أى تسرب في السحاب ، وأنعق
الغبار : إذا سطع . قال رؤبة :

إذا العجاج المستطار انعقا

قال أبو عبد الرحمن - وهو الخليل - أصل العتق
الشق وإليه يرجع عقوق الوالدين ، وهو قطعهما ، لأن
القطع والشق واحد . يقال : عتق ثوبه ، إذا شقه .
ومنه : عتق والديه يعقهما عقاً وعقوقاً . قال زهير :

فأصبحتما فيها على خير موطن

بعيدتين فيها من عقوق ومأثم

وقال آخر :

إن البنين شرارهم أمثاله من عتق والده وبر الأبعدا

وقال أبو سفيان بن حرب لحمزة سيد الشهداء

رضى الله عنه يوم أحد حين مر به وهو مقتول : ذق

عقق . أى ذق جزاء فعلك يا عاق ، لأنك قطعت

رحمك وخالفت أباءك وذقت وبال ما حسبت .

والمعقة والعقوق واحد قال النابغة :

أحلام عاد وأجساد مطهرة من المعقة والآفات والأثم

والعقيق : جزع أحمر ينظم ويتخذ منه الفصوص ،

الواحدة عقيقة . والعقيق . واد بالحجاز ، كأنه عتق ،

أى شق ، غلبت الصفة عليه غلبة الاسم ، ولزمته الألف

واللام لأنه جعل الشيء بعينه . قال جرير :

فهيها هيها العقيق وأهله

وهيها نخل بالعقيق نحاوله

أى بعد العقيق وأهله .

ثم يحتم الخليل المادة بالرباعى المكرر البنية فيقول :
« والعقيق : طائر أبلق طويل الذنب يعرف صوته
بالعققة . وجمعه : عقاقق » .

هذه صورة من عرض الخليل لمادته لم يلزم نفسه
فيها بنهج وإنما هو استطراد . يفصح أحياناً ويبههم أحياناً
يشرح أحياناً ويترك الشرح أحياناً .

وهذا الجهد الذى نلمسه هنا نلمس مثله فى جميع
المواد ، وهذا يصور لك كم كان عناء هذا الرجل الذى
يقال عنه إنه الواضع الأول لمعجم عربى وليته حين أخذ
فى عمله خفف عن نفسه شيئاً فلم يضم إلى مشقته مشقة
أخرى بهذا الترتيب الذى التزمه .

ولكنك ترى أن هذه المادة الزاخرة الذى ضمها
كتاب العين والى سقنا لك شاهداً منها بعيد أن تستوعبها
ذاكرة ، وأن الخليل كان حين هم بهذا العمل الكبير
بملك مظاناً بين يديه ، وحين استوى له المنهج الذى رسمه
استطاع أن يستفرغ المظان ويستصفى ما فيها ، ولكنه
على كل حال جهد لا يطيقه إلا الخليل بملك العقل المنظم
والرأى الهادى اللذين بهما يهون الكثير .

والماضى فى كتاب العين يرى أن الخليل عنى عناية
كبيرة باللغات فذكر عنعنات تميم وكشكشة ربيعة كما أشار
إلى لغة هذيل وتميم واليمن ، كما لم يفته أن يشير إلى لغة
المعاصرين له فى إقليمه العراق أو بلده البصرة .

كما عنى بالقياس يرد أكثر ما يورد إليه ، كما لم
يسكت عن تعليل المسميات التى يوردها ليربطها بموادها ،
كما دعم لشروحه اللغوية بموفور من الشواهد الشعرية
والأمثال والقرآن والحديث .

وبلاحظ أن الخليل توضع فى الاستشهاد الشعرى
لا يقف عند شعراء معينين بل تجاوزهم إلى سواهم فزاه
يستشهد بشعر لأبى دودا وعدى بن زيد وهما ممن
لا تروى الغرب أشعارهما كما يقول الأصمعى . كما نراه

يستشهد بشعر الكميت ، والكميت منهم بأن كلامه ليس
بفصيح .

كما نجد يستشهد بشعر لبشار وبشعر لحفص الأعمى
من المولدين ، وأكثر اللغويون لا يرضونهما .

ولقد جاء بعد الخليل من شك فى نسبة هذا الكتاب
— أعنى كتاب العين — إليه ، واتصل هذا الشك بنقله
الخلف عن السلف ويعقبون عليه . ولقد تناول هذه
المشكلة أخيراً اثنان من رجالنا المعنيين بالمعاجم هما
الدكتور حسين نصار والدكتور عبدالله درويش بسطا
فيها القول بسطا وعلى حين يميل الدكتور نصار للأخذ
بالرأى القائل إن كتاب العين كان للخليل ترتيب أبوابه
ثم كان لليث تحشيته . يذهب الدكتور درويش إلى أن
كتاب العين للخليل لحمه وسدى ، ويكاد يكون هذا هو
الرأى الأخير المعول عليه .

وبعد فلقد كان الخليل يكتبه هذا أول معجمى
وكان رأساً للمدرسة معجمية اقتفت أثره وانتفعت بمنهجه ،
فعلى منهج الخليل ألف القسالى اسماعيل بن القاسم
(٣٥٦ هـ) معجمه « البارع » ، ثم الأزهرى أبو منصور
محمد بن أحمد (٣٧٠ هـ) معجمه « التهذيب » ثم
الصاحب بن عباد أبو القاسم اسماعيل (٣٨٥ هـ) معجمه
« المحيط » وابن سيدة أبو الحسن على بن اسماعيل
(٤٥٨ هـ) معجمه « المحكم » .

وكذلك انتفعت بكتاب العين المدرسة المعجمية
الثانية التى حاولت التحلل من الترتيب على مخارج
الحروف ، فهى وإن لم تنتفع بمنهج الخليل فى هذا فقد
أفادت الكثير من مادته فلم يبعد ابن دريد أبو بكر محمد
ابن الحسين (٣٢١ هـ) فى معجمه « الجمهرة » عن
كتاب العين كما أفاد ابن فارس أحمد (٣٩٥ هـ) مثلاً
شيئاً فى معجميه « المقاييس » و « المحجل » .

وكما شغل كتاب العين المنشئين شغل المتعقبين
والمنصفين ، فلقد استدرك أبو فيد مؤرخ السدوسى

ونصر بن علي الجهمي على كتاب العين كما استدرك عليه أيضاً أبو تراب . وألف المفضل بن سلمة (٣٠٨ هـ) كتاباً في الرد على الخليل وألف الكرماني النحوي الوراق هو الآخر (٣٢٩ هـ) كتاباً سماه « الجامع في اللغة » جمع فيه ما أغفله الخليل في كتاب العين .

وفي نحو هذا ألف المطرزي أبو عمر محمد بن عبد الواحد (٣٤٥ هـ) كتاباً سماه « فائت العين » كما ألف للبشتي الخارزنجي أبو حامد أحمد بن محمد كتاباً سماه « التكملة » وكذلك ألف أبو الأزهر البخاري (القرن الرابع) كتاباً سماه « الحصائل » والهمداني الراعي أبو الفتح محمد بن جعفر (٣٧١ هـ) كتابه الاستدراك كما ألف الزبيدي أبو بكر محمد بن حسن (٣٧٩ هـ) كتابه « المستدرک » ثم الخطيب الاسكاني أبو عبد الله محمد بن عبد الله (٤٢٠ هـ) كتابه « غلط العين » ثم ابن التبان أبو غالب تمام بن غالب (٤٣٦ هـ) كتابه « الموعب » فهذه جملة من الكتب التي تعقبت الخليل في كتابه العين . وثمة كتب أخرى لمؤلفين حاولوا انصاف الخليل والرد على متعبيه نذكر منها .

١ - كتاب التوسط ، لابن دريد محمد بن الحسن (٣٢١ هـ) .

٢ - كتاب الرد على المفضل فيما أخذه على الخليل لابن نفطويه ابراهيم بن محمد (٣٢٣ هـ) .

٣ - كتاب الرد على المفضل في الرد على الخليل لابن درستويه عبد الله بن جعفر (٣٤٧ هـ) .

وبهذه الجهود المعجمية التي بدأها الخليل وهدى إليها بعد أن اهتدى هو إليها استوت بين أيدي المعجميين المادة أولاً وتفتحت لهم الطرق ثانياً فأخذوا يلونون ويشكلون .

وقد اختصر كتاب العين اثنان :

أما أولهما فهو أبو الحسن علي بن القاسم السنجاني ، ذكره الباخري وذكر مختصره فقال : هو صاحب كتاب مختصر العين إلى أن قال : . . . وقد سهل طريق اللغة على طالبها وأدنى قطوفها من متناولها باختصاره كتاب العين .

وثاني الرجلين هو أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي (٣٧٩ هـ) ولقد وقع الناس على مختصره لكتاب العين قبل أن يقعوا على كتاب العين نفسه وعاشوا عليه وكانت دراساتهم التي كانت حول كتاب العين مردها إلى هذا المختصر على الرغم من أن الزبيدي بذل شيئاً في الكتاب فوق اختصاره له .

ولقد بقيت البيئة العربية تفقد الأمل في العثور على نسخة من الكتاب إلى أن اهتدى أخيراً إلى خطبات منه تمهد الطريق إلى نشره نشرة علمية محققة سليمة .